

البراءة

ابتسامه الجنرال والزورق والدعوة . الابتسامه غير بعيدة على
مرمى البصر ، والدعوة قائمة ومستمرة ومتجددة ، كرياح خفيفة
دائمة الهبوب . الزورق تتلاعب به المياه ، تعلو به موجة ، تنخفض
به موجة . باغراء كبير يتلاعب ، الابتسامه غير واسعة ، وكأنها
بالإرادة محددة الحجم ، مضبوط ارتفاع شفتها العليا . مقاس تأثيرها
بدقة زائدة . الجنرال سمين أكثر مما يبدو في صورته بالصحف ، واقف
بنمشى ، راض عن الدنيا تماما . صلته الأمامية تلمع بحييات عرق
تحت ضوء الشمس . الشمس حارة لكنها غير لاسعة ، في الحقيقة
متسمة تلف الجو كله بروح الإغراء والدعوة . عصا الجنرال تحت
إبطه ولكن ثيابه مدنية . وقبضة صيفي بنصف كم . البقعة السوداء التي

تعجب عنه من شرط الرضا المتسم والوجه المكتر قد اختفت أو
كادت . في الحقيقة لا ألاحظها . لا أرى أظافر ، أو رؤوس حرايب أو
تخاير غدر . المجهور على المرسى الخشبي القديم ، متدلى الرؤوس
من فوق الحاجز ، يتطلع ساكنا سكوت الدهشة ، سكوت حب
الاستطلاع ، سكوت يوم الدين ، ولكنه سكوت عظيم . الجترال
الأمر ما ، لتأخر ما ، ضحكة فقط فتحت فيه ، أسنانه تبدو قديمة
متفرجة ، متسخة قليلا ، ولكنها بلا أياب ، بلا أياب .

ابتسامه الجترال والزورق والدعوة ، وعبرت . كيف ؟ لا
أعرف . على ماء كالحرير ، أو حرير من الماء ، عبرت ، بالزوجة ،
بالتلقائية ، بالرغبة ، عبرت . هيت . كما تب النمسة في الاتجاه
المضاد ، هيت . أصبحت هناك . اهتزت أهداب العين الواحدة في
ترحاب وقور . الابتسامه أضيف إليها طعم الاكتفاء . عصا الضباط
العظام تراخت تحت إبط لم بعد مشدود العضلات . لم تند يده
تصاف حتى . في وجهه تعبير من لا يريد إخراجي ، من يعرف أني لن
أصافحه . أنا فقط أريد أن أرى ، مجرد أن أرى وأنفرج عن كتب
أشاهد ، والرؤية ليس فيها دنس . نظيف أنا مثل (بفتة المحلة)
البيضاء . كيف أصالح وأبديهم ملائى بالحيات والتعابين

والعقارب ؟ أنا منأكد أننى لو مددت يدى ، وصافحت ، لالتصفت
باليد التصاق الأبد ، ولا أعود أستطيع الانفصال . للفرجة
جئت ، وعلى الضفة الأخرى كنت أنفرج . والآن ، عن قرب
أفعل . فماذا يصير ؟ ماذا يصير ؟

أتحول ، وفوق الشاطئ الرمالى أقدامى تتحرك ، خفيف الوزن
كأنى هبطت فوق القمر ، هبطت فوق الوجه الآخر للقمر .
الشمس تماما غير مباشرة ، نورها باقى ، ضعيفا واهنا ، كسور
العشق ، من كل اتجاه باقى ، وإلى كل اتجاه يمضى ، فلا يبقى إلا أثر
العشق .

كل شيء على الشاطئ هنا . المدن صغيرها وكبيرها هنا .
البلاجات ، المواخير ، وحتى مصانع الأسلحة السرية هنا . لا
أحتاج إلا خطوة واحدة ، فيغير الزمن ، ويتغير المكان . الجنرال
أشعر به من بعيد براقبى . كان من واجبه مصاحبى . ولكنه تأدبا
أراد لى أن أكون بمطلق حريتى . وأن أفعل ما يحلو لى . لا تتأثر إرادتى
حتى بمجرد قربه أو وجوده . ولكن عيني الخلفية تحس به بحرك رأسه
أتى أتحرك . ابتسام لا تغير . أم غير مكثرت بالمره . . عصاه تحت
إبطه . رأسها كالبرسلة يتحرك ، يتعقبنى ، يحرك الأشياء أمامى ،

الزمان والمكان والمشهد . رأس العصا ليس مندحاً في غلظة أو
وضوح إنما هو ، كوجه الجنرال ، ينسكب انسكاباً منسقاً مع بقية
الجسم .

من الغمام العسقي يبرز وجه سيده . أمامي منحنية قليلاً وقفت .
جيداً لم أتبين الملاح . هل كان هذا رأس حقا ؟! إنها بالتأكيد سيده .
تكلمت عاماً ، ربما عامين ، ولكني لا أريد أن أسمع ، أخرجت من
حفية يدها ، التي تشبه حقائب الدبلوماسيين ، أصبع روج . لفت
قاعدته ، فانبثق من فتحة بدلاً من الروج ماركات ألمانية حقيقية .
آلاف الأوراق . كل ورقة بألف مارك . لفته مرة أخرى التفتت
دولارات ، ليرات ، دينارات ، ورقات بعشرات الجنيهات أشعث .
أغلقت الأصبع . قدمته بلطف زائد . أشعث . الجهد عجيب .
ولكني أشعث . تفرجت وأشعث . بعيني الخلقية أحسست بأثر
شعاعي كومضة البرق . ومن عصا الجنرال صدر . اختفت وبجرد
خطوة أخرى ، وجدتها تنتظرنى . ليست فقط بملاح أنثوية
واضحة ، ولكنها بالملاح الأنثوية التي أريدها . الوجه طويل يتنى
بذفن يتوسطها طابع الحسن ، عميقاً كالسرة . الشعر طويل ومنهدل
ومفروق وكأنما منذ أن نما . من الوسط يتهدل ، ويغطي الأذنين ،

وبغمر الأكشاف والصدر . الشفتان قطعاً لشابة في السابعة عشرة .
شفاه جربت لا بد القبل . ولكنها لم تمتن بعد ، بأعلى القبل . العيون
واسعة ، ومليئة بالفريرة المشعة ، والرموش طويلة تكاد تبين كل
رمش منها نافر وحده كذلك الشمسية . رموش بريّة ، بركانية ،
كأنما فجرتها بخرارة طبيعية أم بدائية . قبل أن تكلمني سمعتها ،
كالسائح المغامر قررت أن أسمعها ، وأيضاً أصانحها . أعرف تماماً أن
يدي إذا لامست يدها ، فيحال أن أسردها .

كالسائح رحلت أسمع . وكالرجل الذي بدأ يدمدم فيه البرق
رحلت أرى . أذالى بدأت تنجذب بقوة . والبركان في بدأت دمدته
تقل ، وتهدد بأن تبدأ . ثاقب كلامها . عقلها يهزني ، يلغني
يغرقني في فيض من رؤى الحياة . أناملها فأشعر كأنني ما عشت الدنيا
أو مارسها . مدمر منطقها . نحى أراه رأى العين نسيج عنكبوت
تعيّره آلاف من ذرات الكلمات الذكيّات ، وعنى يزداد إلى درجة
جاوزت حد الخطر . كنت واثقاً أني في اللحظة الفاصلة أستطيع أن
أكون السيد والغالب . والمهدم بضربة كل ما شيدته في عقلي من
أوهام . ولكن رعبى أنها أصبحت أصلب من الحقائق ، وأدرك أني
حالا ، وبعد ثانية ، ومهما هويت ، قلن أهدم شيئاً .

وفجأة ، من الأعماق البعيدة ، انخفض صوت النذير ،
وعطوت غطيا لحطرات ، مقررًا بلا رجعة أن أعود . لقد حثت
أُتخرج . فجأة أيضا ظهر الجنرال ، أمامي وقف . الانضمام هذه
المرّة انضمام اعتذار واضح . مديده ، بالأدق ، حرك يده حركة
تصلح أن تكون مشروع مصافحة . لا يا جنرال حتى أنت لا
أصافحك ، بكاء شديد أدرك ، بكاء أشد تحولت همه اليد إلى
حركة لفة داعية أن أتقدم . رحت أجمع نفسي ، وأتقط أنفاسي ،
وأرفع القدم وأبدأ أتحرك .

ظهور طويل ، قادم من بعيد ، من أبعد ، وكأنما يبدأ أوله عند
الأمس ، وقبل الأمس ، ومئات السنين . ظهور عليه مسحة الحزن
الذليل . بنات وميدات ، مسنات وصبايا في الثالثة عشرة ، بيض
وجهر ، وسمر وصفر ، شاحبات . أمامي تتردد الواحدة ، بانكسار
تنظر . بانكسار ترفع الرأس . بأهداب منكسرة تنظر الربة . يعيون
فيها الحزن الرقيق تمنى . الأسى أثنى وبضفى على المرأة أتوته .
وليس أكثر أتوته من الحزن إلا الصبايا الحزاني . الأسى لا يستير
الشفقة . إنه يستير الفحولة . اختر ما تشاء . أمامك المائدة حافلة .
أمامك . بحيرة المدرجات أمامك . نخجل ربات البيوت أمامك .

الأرامل الفتيات أمامك . الفتيات الجميلات أمامك . يكفي أن
تلمس الواحدة فتدوب أمامك . تغوص في مياهاها الأنثوية . وتصبح
فيها ، وتبعث كيف تشاء ، وأنى تشاء . يا للغلالات السوداء
الرفيقة ، حتى الرخيصة منها ، وهي تنزاح وتمزق عن اللحم
الأبيض ! اللحم الشهى الشاحب الأبيض . يا للوجه المتكسر أسى
وهو بجوء نشوة وإحساسا بالرجل . يا للدوائر الشديدة البنية ذات
السيفان الوسيطة المتوردة ، وهي تنور وتمرد على تهديها الحزين . يا
لعواء يأتي من شعر تحت الإبط ، ذى العرق اللؤلؤى المنسال
الحامض ، كل نقطة مثالة منه تحمل كل رائحة الأنثى وتغريزها . يا
للحزن حين يستحيل بتأثيرك تهكرا وفجرا ، وأمامك الطابور . احتر
ما تشاء ، بأصبعك أشر ، بمجرد أن تشير . بإرادتك أهرب ، بمجرد أن
تختار . برغبتك ، حتى بمجرد البشاق الرغبة في أحضانك الباطنة ،
حرب . والجحرا ل هناك ، لا أعرف له مكانا على وجه التحديد ،
و كأنما هو يختار دائما أن يكون حيث لا أراه . هناك هو بالتأكيد ،
بنظرانه يطيط على كفى مشجعا داعيا مباركا ، حتى لو احترت
ابنة العاشرة سيارك الاحتيال . اللحم ، بمجرد اللمس أصبح مغريا إلى
حد مستحيل المقاومة . ولكني خائف مخوف الموت أو المس .

أعترف ومتأكد أنه بمجرد اللمسة سيصبح الطاهر كله لي ، والطاهر
طويل طويل ، والنساء كثيرات ، متباينات ، حتى بكل أساهن
الجنسي الخاص . أصاهبي تأكلني . الرجل في يعوي وأنا كالصخر
الثابت أخرج . والفرجة ليست دنسا ، وقلبي نظيف كهيئة
(المحلة) البيضاء الرغبة في صدري مكمنة الأفواه ، مكثفة الأرجل
والسيقان . مخوفة غاما لا تمكك أن تعبر عن نفسها أبدا . أخاف
حتى مجرد أن أعبر عن نفسي . فبمجرد التعبير سأبدأ أنهار . الطاهر
يخلط . الألوان تفرز الألوان . النسوة الكثيرات يستحلن إلى غاية .
الألوان زاهية زاعقة ، كالبونات الأعياد تنهر . الثوب يختصر إلى
الميني جيب والميكرو جيب واللاجيب ، السيقان أصبحت مصنوعة
ومضبوطة على أدق مقاييس الجمال . الساق منها شيء كاملة .
مصنوعات فليكس . وليكن الإنساج (ماس برودكشن) .
الباروكات أجهل من الشعر الأصيل ألف مرة ومرة . العيون الصناعية
احلى وأروع من الطبيعية مليون مرة . وحسبها وكيفما تريد . باباية
ضيقة ، وصينية معوجة ، وأميركية واسعة ، وعريضة سوداء ،
وإنكليزية زرقاء ، وحضراء وبنفسجية . المصنوعات يرقصن .
بنطلوناتهن محرقة . البلوجنز يفتك بالنظر . تقشعر له العين ،

وتتصب له الرموش قبل أن يقشعر الجسد . الرقصة أمامي تحدث .
الوسط يتلوى ، بكل التواءة وسط تقول خذني . السيقان تشنج
ممدودة نجار ، مكنونة تسجير . الأكفاف تهتز ، تضيق ، تسع ،
تنادي ، تقبل ، تدبر كي تقبل أكثر . الشفة السفلى تسدل ،
تسترخي تنقبض . الفم يضيق ضيقا داعرا مجنونا . أنا يا عم أفرج .
أموت رغبة ، تقتلني الرغبة ، ولكني لن أفعل إلا أن أفرج . لقد
جئت فقط كي أرى وأفرج . يا جنرال أعرف أنك خلقي وأنتك
تراقبني وأن برأس عصاك إشعاعا ، يخضع الأشياء لكل ما أتمنى
وأرغب ، ولكني سأظل أفرج .

بل لم يعد في طائفي البشرية ، أن أهنئ ، وأن أفرج .
الزورق وقهرى للابتهامة والدعوة على وجه الجنرال تودعي ،
مشقة لغائي ، ساحرة . هزة الرأس أسفا ، بعيني الخلفية أراها
مودعة . الزورق يتحرك . أحس الآن بحركته ، وبالزمن بدأت
أشعر . أنا ألهث ، مستريح الضمير ألهث . كمن نجح في امتحان
شديد القسوة . ومستريح الضمير . لم ألمس . لم أتدنس . طول
الوقت أفرج . بقيت نظيفا كهيئة (المحلة) البيضاء ، كضماير
الناس الكثيرين المتراحمين ، على شاطئ ، فوق المرسى ، أفرج .

أعناق مدلاة فوق الحاجز وسكون . سكون حب الاستطلاع ،
سكون الفرحة ، سكون يوم الدين ، ولكن إلى نفس السكون العظيم
أعود .

ولكن شيئا جديدا ، لم أتوقعه أبدا ، فنته ، هناك ، وغير بعيد عن
مكان المتراحمين فوق المرسى القديم ، لنته . ابني ، حافي القدمين في
حلباب النوم ، واقفا . شعره مشعث . ملامحه فيها جمود المستيقظ
لتوه من غفوة ، وكان ناحيتي ينظر . إلى ينظر مرة وإلى المتفرجين
المدلاة أعناقهم مرة ، صاحب الوجه ، رفيعا ، نحيف الساعد ،
ولكن في ثبات ينظر . دهشت . جعلتني الدهشة الأولى أحبه أكثر .
إنه ابني . دمي أنا ولحمي . قطعة مني قد انفصلت ، وأصبحت كائنا
مستقلا فالتصلت بي أكثر . كائنا له وجهه الخاص ، ورأسه الخاص ،
وساعده التحيل الخاص .

وصل الزورقي ، يهدر . لأمس الخشب القديم ولكني لم أعادره .
المنظرة الكامنة في عيني ولدي ثبتي في مكاني لا ذرة بنوة واحدة
ألحظها في النظرة . ماذا حدث ؟ تحرك ساعده . امتدت يده إلى
فتحة الجلباب . خرجت اليد قابضة على شيء معدني أسود . كان
مسددا . حسبه لعبة أطفال . ولكنه كان مسددا رجاليا كبيرا .

ماسورة بطول الساعد الناحل . مسدس حقيقي له فوهة . والفوهة
تتحرك ، لتصبح دائرتها الموداء موجهة إلى صدرى مباشرة .
بالضبط إلى مكان القلب من الصدر . تعلقت نظرتي مستغيثة بكل ما
لى فيه . لم تحب استغاثتى بأحد . الوجه قاض ، والنظرة جلاد ،
والفم يتمم بالحكم . لا . أنا لم ألمس يا بنى شبتا . يا مجنون . كنت
مثل هؤلاء جميعا أتفرج . ارجع . لا تكن مجنونا . ما الجريمة أن أفف
وأففرج ؟ فلى نظيف كهيئة النحلة البيضاء . كقلوب هؤلاء الناس ،
و لم أفعل إلا التفرج . ارجع . أرجوك . أستحلفك . اعقل . فكر .
ما الجريمة يا أحمق أن أففرج ؟

القمعة تكف . الشفاء تنطبق في إصرار . الدوى . ارتعاشة اليد .
الرصاصية في كفى . الدمعة ألحها تترفرق في عينه . الرصاصية الثانية
كالكتلة تدك صدرى . حوبها لا أزال أسمع . الثالثة لا أعود أسمعها .

dvd4arab.com